٣

الحملة الأيديولوچية

مقابلات منفصلة مع راديو ب. ٩٢ [بلجراد] فى ١٨ سبتمبر ٢٠٠١، واليزفريد وپيتركرنزلر لراديو دويتشلاندفونك، [ألمانيا] فى ٢٠ سبتمبر ٢٠٠١، وپاولا ليونى لجورنال ديل پوپولو [سويسرا] فى ٢١ سبتمبر ٢٠٠١

سؤال: ما رأيك فى تغطية وسائل الإعلام لهذا الحادث؟ هل هناك تواز مع حرب الخليج فى "صناعة الموافقة"؟

تشومسكى: ليست التغطية الإعلامية بهذا التطابق الذى يبدو أن الأوروپيين يظنونه، وربما يرجع هذا إلى حرصهم على الاطلاع على النيو يورك تايمز والناشيونال پابليك راديو (الإذاعة العامة الوطنية) والتلفزيون وما إلى ذلك. بل إن النيو يورك تايمز أقرت هذا الصباح، بأن الاتجاهات فى نيو يورك ليست تمامًا مثل تلك التى ينقلونها. وهذه قصة جيدة، تشير بوضوح، إلى أن وسائل الإعلام الجارية لم تكن تنقل ذلك، وهو ليس صحيحًا على إطلاقه، مع أنه صحيح إلى حد بعيد بالنسبة للنيويورك تايمز. تقول التايمز الآن إن: "دق طبول الحرب . . . لا يكاد يسمع فى شوارع نيو يورك" وأن نداءات السلام "تفوق إلى حد كبير المطالبة بالقصاص." حتى عند الباب الخارجى "لإحياء ذكرى الخسارة والحزن" لضحايا تلك الأعمال البشعة. فى الواقع، ليس هذا أمرًا غير عادى فى البلاد. من المؤكد أن هناك عاطفة إجماعية، نشترك فيها جميعًا، من أجل التعرف على الجناة ومعاقبتهم، إن أمكن العثور عليهم. غير أنى أعتقد أنه من المحتمل أن هناك عاطفة لدى الغالبية ضد الضرب عشوائيا وقتل الكثير من الأبرياء. غير أن وسائل الإعلام الكبرى وطبقة المفكرين عمومًا، دأبت دائمًا على رص الصفوف تأييدًا للقوة فى وقت الأزمات، ومحاولة تعبئة الناس من أجل القضية نفسها. لقد كان هذا

صحيحًا، وبهيستيريا حادة تقريبًا، فى وقت قصف الصرب. ولم تكن حرب الخليج غير عادية بأى حال. فهذا النمط ضارب فى التاريخ.

سؤال: إذا ما افترضنا أن الإرهابيين قد اختاروا مركز التجارة العالمى كهدف رمزى، كيف تساعد العولمة والهيمنة الثقافية على خلق الكراهية لأمريكا؟

تشومسكى: إن هذا اعتقاد ملائم للغاية للمفكرين الغربيين. فهو يحلهم من المسئولية عن الأعمال التى تكمن بالفعل وراء اختيار مركز التجارة العالمى. فهل ألقيت القنابل عليه عام ١٩٩٣ بسبب القلق من العولمة والهيمنة الثقافية؟. وهل أغتيل السادات منذ ٢٠ سنة بسبب العولمة؟ وهل بسبب العولمة والهيمنة قاتل الأفغان ـ فى القوات التى كانت تدعمها وكالة المخابرات المركزية ـ قاتلوا روسيا فى أفغانستان أو الشيشان الآن؟ منذ بضعة أيام تحدثت الوول ستريت چورنال عن اتجاهات المصريين الأثرياء وأصحاب الامتيازات الذين كانوا فى أحد مطاعم مكدونالدز، يرتدون ملابس أمريكية على أحدث طراز، إلخ. وكانوا ينتقدون الولايات المتحدة بمرارة لأسباب سياسية موضوعية، وهى أسباب معروفة جيدًا للذين يريدون أن يعرفوا. لقد تلقت الصحيفة تقريرًا قبل ذلك بقليل عن الأثرياء وأصحاب النفوذ فى المنطقة. وجميعهم مؤيدون لأمريكا، وينتقدون سياسات الولايات المتحدة نقدًا عنيفًا، هل كان ذلك بسبب القلق من "العولمة" ومكدونالدز والچينز؟ الاتجاهات فى الشارع متشابهة، وإن كانت أشد حدة، ولكنها ليست لها علاقة بهذه المبررات الرائجة. فهذه المبررات ملائمة للولايات المتحدة والغرب. ولنقتبس ما جاء فى المقال التحليلى الرئيسى الذى جاء فى النيو يورك تايمز ١٦ سبتمبر "لقد فعل الجناة ما فعلوه من منطلق الكراهية للقيم التى يعتز بها الغرب، مثل الحرية والتسامح والرفاهية والتعددية الدينية وحق الانتخاب للجميع." إن تصرفات الولايات المتحدة مناسبة؛ لذا ليس هناك داع حتى لذكرها (سيرج شميمان) وهذه صورة مريحة، وهذا الموقف العام مألوف فى التاريخ الفكرى؛ بل إنه فى الواقع قريب من المعيار المعتاد. كل ما حدث أنه مختلف تمام الاختلاف عن كل ما نعرف! لكنه يتمتع بجميع مزايا إطراء الذات والتأييد المطلق لاستخدام القوة دون سؤال، كما أن خطأ تبنى هذا الموقف يسهم إسهامًا كبيرًا فى احتمال حدوث المزيد من الأعمال البشعة، بما فى ذلك الأعمال الموجهة ضدنا، وربما كانت أعمالاً أشد بشاعة من تلك التى وقعت فى ١١ / ٩.

أما عن شبكة ابن لادن، فإنهم لا يهتمون كثيرًا بالعولمة والهيمنة الثقافية بقدر

اهتمامهم بالفقراء والمظلومين فى الشرق الأوسط على مدى سنوات. وهم يخبروننا بما يقلقهم بوضوح وبصوت مرتفع، إنهم يجاهدون ضد الأنظمة الفاسدة القمعية "غير الإسلامية" فى المنطقة. كما أنهم يجاهدون ضد من يقف وراء تلك الأنظمة، تمامًا كما جاهدوا ضد الروس فى الثمانينيات من القرن العشرين، ويفعلون الآن فى الشيشان وغرب الصين ومصر - فى هذه الحالة منذ ١٩٨١، حين اغتالوا السادات - وفى غير ذلك من الأماكن، بل إن ابن لادن نفسه ربما لا يكون قد سمع قط عن "العولمة". فالذين أجروا معه مقابلات معمقة، مثل روبرت فيسك، يقولون إنه لا يعرف أى شىء تقريبًا عن العالم، كما أنه لا يعبأ بذلك أيضًا. يمكننا أن نختار تجاهل جميع الحقائق ونركن إلى الأوهام إذا شئنا، غير أن ذلك سيكون مخاطرة كبرى فى حق أنفسنا، نحن وغيرنا. كما يمكننا أن نتجاهل من بين أشياء أخرى، إن شئنا، جذور الأفغان، من أمثال ابن لادن ورفاقه، ليس هذا سرا.

سؤال: هل الشعب الأمريكى متعلم بحيث يرى ذلك؟ هل هناك وعى بالسبب والنتيجة؟

تشومسكى: للأسف لا، تمامًا مثل الأوروبيين. إن الشىء البالغ الأهمية بالنسبة للعناصر المتميزة فى الشرق الأوسط - حتى رجل الشارع على نحو أكبر - يكاد لا يفهم هنا، وأوضح الأمثلة على ذلك سياسات الولايات المتحدة المتناقضة نحو العراق واحتلال إسرائيل العسكرى. فهم يرون أن سياسة الولايات المتحدة فى العراق على مدى العشر سنوات الماضية قد دمرت المجتمع المدنى، فى حين أنها قد قَوّت من صدام حسين - الذى كما يعرفون قد أيدته الولايات المتحدة بقوة فى أشد أعماله بشاعة، بما فى ذلك قتل الأكراد بقنابل الغاز عام ١٩٨٨ - غير أن الغربيين يفضلون رواية أخرى. وحين يذكر ابن لادن هذه النقاط فى إذاعات تسمع فى كل أنحاء المنطقة، فإن مستمعيه حتى أولئك الذين يمقتونه يتفهمون ذلك، هم والكثيرون غيرهم. ونادرًا ما تذكر أهم الحقائق عن الولايات المتحدة وإسرائيل، وتكاد لا تعرف على مستوى العالم، وعلى الأخص بالنسبة للنخبة من المفكرين. والناس فى المنطقة، بالطبع لا ينعمون بالأوهام المريحة السائدة فى الولايات المتحدة التى تتحدث عن العروض "السخية" "الضخمة" التى قدمت فى كامب ديفيد فى صيف ٢٠٠٠، ناهيك عن غير ذلك من الأساطير التى يفضلها الغرب. هناك الكثير مما كتب عن هذا الموضوع، وهى كلها عن مصادر موثقة، لا يرقى إليها الشك، غير أنه لا يكاد يعرف.

سؤال: ما رأيك فى رد فعل الحكومة الأمريكية؟ ومن الذين تمثل الحكومة إرادتهم؟

تشومسكى: تستجيب حكومة الولايات المتحدة، كغيرها لمراكز القوة الداخلية المركزة. ويجب أن يكون هذا أمرًا بديهيًا. هناك بالطبع، مؤثرات أخرى، بما فى ذلك التيارات الشعبية، ويصدق هذا على جميع المجتمعات، حتى النظم الشمولية القاسية، ومن المؤكد أنه يصدق على المجتمعات الأكثر ديموقراطية. وبقدر ما لدينا من معلومات، فإن حكومة الولايات المتحدة تحاول الآن استغلال الفرصة لتنفيذ جدول الأعمال الخاص بها: العسكرة، بما فى ذلك "الدفاع الصاروخى" والكلمات الشفرية لعسكرة الفضاء؛ والإقلال من شأن البرامج الاجتماعية الديموقراطية؛ وكذلك تخفيض القلق من آثار "العولمة" أو القضايا البيئية، أو التأمين الصحى، وما إلى ذلك؛ ومأسسة أو تثبيت الإجراءات التى تقوى من انتقال الثروة للقلة القليلة، مثلاً رفع الضرائب عن الشركات الضخمة المندمجة، وتشطير المجتمع بما يسمح بالقضاء على النقاش العام، والاحتجاج. وكل هذا عادى وطبيعى تمامًا. أما عن الاستجابة، فأنا أظن أنهم يستمعون إلى القادة الأجانب والمتخصصين فى شئون الشرق الأوسط، وكذلك وكالات مخابراتهم - على ما أعتقد - التى تحذرهم من أن الرد العسكرى القوى سوف يكون استجابة لدعوات ابن لادن. ولكن هناك عناصر متشددة تريد أن تستخدم هذه المناسبة للانقضاض على أعدائها، بأقصى درجات العنف، بغض النظر عن الأبرياء الذين سوف يعانون من جراء ذلك، ومنهم أناس هنا وفى أوروبا ممن سيكونون ضحايا دائرة العنف المتصاعدة. ومرة أخرى كل هذا يتم بدينامية شديدة الألفة والاعتياد؛ إذ أن هناك الكثير من أمثال ابن لادن فى الجانبين، كالمعتاد.

سؤال: لقد نشرت العولمة الاقتصادية النموذج الغربى فى كل أنحاء العالم، وكانت الولايات المتحدة هى أول من أيدها، وأحيانًا ما كان ذلك بوسائل موضع تساؤل؛ إذْ كثيرًا ما يكون ذلك عن طريق الاستهانة بالثقافات المحلية. فهل نحن نواجه تبعات العقود الأخيرة من السياسة الاستراتيجية الأمريكية؟ هل أمريكا ضحية بريئة؟

تشومسكى: كثيرًا ما تثار هذه الفكرة، وأنا لا أوافق على ذلك. ومن بين الأسباب، أن النموذج الغربى - وعلى الأخص نموذج الولايات المتحدة - قائم على

تدخل الدولة الكبير فى الاقتصاد. ذلك أن "القواعد الليبرالية الجديدة" مثل قواعد الحقب السابقة؛ إذْ أنها ذات حدين: فانضباط السوق طيب بالنسبة لك، لكنه ليس كذلك بالنسبة لى، إلا إذا كان ذلك من أجل مزية مؤقتة، حين أكون فى وضع طيب يمكننى من الفوز فى المنافسة. ثانيًا: أن ما حدث فى الحادى عشر من سبتمبر ليست له علاقة تقريبًا بالعولمة الاقتصادية، حسب رأيى. فالأسباب تكمن فى مكان آخر. إذ ليس هناك ما يبرر جرائم مثل تلك التى وقعت فى الحادى عشر من سبتمبر، غير أننا يمكننا أن نفكر فى الولايات المتحدة كـ "ضحية بريئة" فقط إذا ما سلكنا السبيل الملائم فى تجاهل سجل أعمالها وأعمال حلفائها، وهو فى نهاية الأمر، ليس سرًا.

سؤال. يتفق الجميع على أن الأمور لن تعود كما كانت بعد١١/ ٩ ، ابتداء من تقييد الحقوق فى الحياة اليومية إلى استراتيجية عالمية مع تحالفات جديدة وأعداء جدد. فما رأيك فى ذلك؟

تشومسكى: لا أظن أن ما حدث سوف يؤدى على المدى الطويل إلى تقييد للحريات داخليًا على نحو جاد. ذلك أن الحواجز الثقافية والمؤسسية التى تحول دون ذلك شديدة التأصل على ما أعتقد. وإذا رأت الولايات المتحدة أن تجيب بتصعيد دائرة العنف، وهو ما يتمناه ابن لادن وشركاؤه، فى أكبر الاحتمالات، عندئذ سوف تكون العواقب مرعبة. هناك، بالطبع، طرق أخرى مشروعة وبناءة، وهناك الكثير من السوابق على ذلك؛ إذْ يمكن للجمهور المتيقظ داخل المجتمعات الأكثر ديموقراطية وتحررًا أن يدير السياسات التى تؤدى إلى المزيد من الإنسانية والكرامة.

سؤال: لم تتمكن المخابرات التى تغطى العالم بأسره، وكذلك نظم المراقبة الدولية (إيشلون على سبيل المثال) من أن تتنبأ بما سيحدث، على الرغم من أن شبكة الإرهاب الإسلامى الدولية لم تكن مجهولة. كيف يمكن أن تكون أعين الرقباء الإخوة الكبار الزعماء مغمضة؟ وهل علينا أن نخشى، الآن، أخًا كبيرًا أكثر ضخامة؟

تشومسكى: بصراحة، لم أكن مبهورا قط أكثر من اللازم بما يذاع عن قلق أوروبا من نظام المراقبة «إيشلون» بوصفه نظامًا للتجسس. أما عن أجهزة المخابرات المنتشرة فى أنحاء العالم، فإن إخفاقاتها عبر السنين كانت ضخمة، وهو أمر أخذت أنا وغيرى نكتب عنه، ولا أستطيع متابعة الكلام عنه فى هذا المجال. ويصدق هذا حتى حين تكون أهداف الانشغال أسهل جدا فى التعامل معها من التعامل مع شبكة

ابن لادن، والتى هى بلا شك شديدة اللامركزية وتفتقر إلى التركيب الهرمى التدرجى، وتتوزع فى الكثير من أنحاء العالم بحيث يصبح اختراقها شديد الصعوبة. ولاشك فى أن أجهزة المخابرات سوف تعطى الموارد؛ كى تشدد من محاولاتها. غير أن الجهد الجاد اللازم للتقليل من تهديد من هذا النوع من الإرهاب، يتطلب، كما حدث فى حالات لا تعد، جهداً لفهم الأسباب والتعامل معها.

سؤال: ابن لادن الشيطان، هل هذا عدو؟ أم أنه، بالأحرى، صنف، نوع من الشعار يحدد أو يشخص الشر؟

تشومسكى: قد يكون ابن لادن متورطًا مباشرة فى هذه الأفعال، وقد لا يكون، ولكن الأكثر احتمالاً أن الشبكة التى كان شخصية رئيسية فيها ـ أى القوات التى أنشأتها الولايات المتحدة وحلفاؤها لخدمة أغراضها الخاصة، وساندت هذه القوات طالما كانت تخدم هذه الأغراض ـ هى المتورطة. من الأسهل كثيراً تشخيص العدو بوصفه رمز الشر كل الشر، من السعى إلى فهم ما يكمن وراء الأعمال البشعة الكبرى. وهناك، بالطبع إغراءات قوية جدّا لأن يتجاهل المرء دوره ـ الذى هو، فى هذه الحالة، ليس من الصعب اكتشافه ـ، بل هو مألوف لأى شخص لديه إدراك بهذه المنطقة (يقصد الشرق الأوسط وتاريخها الحديث).

سؤال. هل توجدمخاطرة بأن تصبح هذه الحرب ڤيتنام أخرى؟

تشومسكى: ما زالت الصدمة حية، وكثيراً ما يثار هذا التشبيه، وهو يكشف، فى رأيى، الأثر العميق للعديد من سنوات العنف الإمپريالى على ثقافة الغرب الفكرية والمعنوية. بدأت الحرب فى ڤيتنام كهجوم من جانب الولايات المتحدة ضد ڤيتنام الجنوبية، التى كانت دائما الهدف الرئيسى لحروب الولايات المتحدة، وانتهت بتدمير قسم كبير من الهند الصينية. ما لم نكن مستعدين لمواجهة هذه الحقيقة المبدئية، لن نستطيع أن نتحدث بجدية عن حرب ڤيتنام، صحيح أنه قد اتضح أن الحرب مكلفة للولايات المتحدة، رغم أن الأثر الذى أحدثته على الهند الصينية أشد رعبًا مما لا يدع مجالا للمقارنة، وكذلك أثبتت الحرب الأفغانية أنها مكلفة بالنسبة لاتحاد الجمهوريات السوڤييتية الاشتراكية، لكن هذه ليست هى المشكلة التى تأتى فى المقدمة حين نفكر فى تلك الجريمة.

* * *